

الموضوع الخامس

الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية

- أ - فى مصر : حركة على بك الكبير
ب - فى بلاد الشام : ١- حركة ظاهر العمر
٢- حركة أحمد باشا الجزائر

إن نظرة متفحصة لأحوال الدولة العثمانية فى منتصف القرن الثامن عشر وبخاصة فى الفترة التى قامت فيها حركة على بك الكبير تبين لنا مدى الضعف الذى لحق بالدولة العثمانية من جراء الضربات التى انهالت عليها من الدول الأوربية وبخاصة روسيا ، فأوهن ذلك قبضتها على ممتلكاتها وأوجد العديد من الحركات الانفصالية المشابهة لحركة على بك الكبير والتى من أهمها حركة ظاهر العمر فى فلسطين ، وحركة الأكراد فى شمال العراق والشام ، والثورات فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود والافلاق والبغدان (١) ، والنزاع بين الأشراف على إمارة مكة . ونتيجة لذلك أخذ بكوات المماليك فى مصر بالاستئثار بالنفوذ والسلطة حتى صار نفوذهم يفوق سلطة الياشا العثمانى ، وأصبح لزعيمهم الذى كان يعرف بشيخ البلد الكلمة المسموعة فى البلاد ، وفى النهاية استغل أحدهم وهو على بك الكبير الفرصة وتمكن من الانفراد بالسلطة فى مصر فى عام ١٧٦٦ .

١ - حركة على بك الكبير :

وقبل أن نتناول حركة على بك الكبير بالدراسة لا بد لنا من وقفة نعرض فيها لنشأته وكيفية وصوله إلى حكم مصر .
الاسم الحقيقى لهذا المملوك هو يوسف بن داود وقد ولد فى عام ١٧٢٨ فى بلده

١- محمد رفعت رمضان: على بك الكبير، القاهرة، دار الفكر العربى ١٩٥٠ ص ٥ .

أبازة من أعمال التوقاز العثماني ، وكان والده واح من تساوسة الكنيسة اليونانية ، ويرغب في أن يكون ابنه مثله تسيسا ، ولكن الأمر لم يمكنه من ذلك وخاصة بعد أن اختطفت عصابة من قطاع الطرق هذا الابن أثناء رحلة صيد كان يقوم بها في إحدى الغابات وباعوه لأحد تجار الرقيق فسأله حتى وصل إلى الاسكندرية وباعه هناك بثمن بخس لمدير جمرك الاسكندرية ، وقد قام مدير الجمرك باهدائه إلى ابراهيم بك أحد زعماء المماليك في مصر (١) وقد اعتنق الإسلام ، وتسمى باسم علي ، وقد أظهر هذا المملوك من ضروب الشجاعة ، ركوب الخيل والتدريبات ما ساعده على الترقى فاكسب لقب 'جن علي' ولما بلغ الثالثة عشرة أعتقه أستاذه وولاه سنجقا ، ثم زادت شهرته بعد نجاحه في الضرب على أيدي البدو الذين كانوا يغيرون على القاهرة ليلا ، فقربه سيده وجعله كاشفا (٢) وواجه علي بك الترقى حتى وصل إلى منصب شيخ البلاد ، وخلال ذلك أخذ علي بك في التوحد إلى العثمانيين حتى اكتسب ثقتهم وفي الوقت نفسه نشط في وضع أتباعه في المناصب الهامة (٣) ، كما نجح في تقليص نفوذ كل من الحامية والديوان عن طريق تربيهم في المشاركة في الحروب الداخلية ، وتأخير رواتبهم بحجة قلة المال .

كما نجح علي بك الكبير في تركيز السلطتين الحربية والادارية في يده وبخاصة بعد نجاحه في كسر شوكة العربان في الوجهين البحري والقبلي فصار صاحب النفوذ المطلق على جميع أنحاء مصر واستقامت له الأمور حتى خافه الناس وهابه الأمراء وأخذ يدير دفة الأمور كما يشاء (٤) . وانتهز علي بك فرصة انشغال الدولة العثمانية بحروبها في الروسيا (٥) ، فاستصدر من الديوان أمرا بعزل والي ثم تولى الحكم مكانه وأبطل ورود الولاة العثمانيين إلى مصر (٦) ، وامتنع عن دفع الأموال إلى الخزينة السلطانية ، وفي عام ١٧٦٨ أحدث تغييرا في شكل العملة فجعل علي أحد وجهيها اسم السلطان ، وعلى الوجه الآخر اسمه .

وعلى الرغم من كل ذلك فمن الصعب القول ان علي بك الكبير كان يرغب في الانفصال عن الدولة العثمانية نهائيا ، بل كان كل هدفه هو الاستيلاء على السلطة في ظل

١- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص ١٨-١٩ .

٢- محمد فواد شكري : الحملة الفرنسية وظهور محمد علي ، القاهرة ، دار المعارف ص ١٦ .

٣- الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج ١ ، القاهرة ، المطبعة العامرة الشرفية ص ٣٨٤ .

٤- ميخائيل شاروويم : الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث ص ١٥١ .

٥- محمد فواد شكري : المرجع السابق ص ٢٠ .

٦- الجبرتي : المصدر السابق ج ١ ص ٣٨٤ .

السيادة العثمانية وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تمثل درعا تحمى الولايات الإسلامية من الأطماع الأوروبية ويؤكد ذلك ما أورده الجبرتي بقوله 'اتفق أن على بك صلى الجمعة في أوائل شهر رمضان بجامع الداودية فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك ، فلما انقضت الصلاة وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب ، وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح فقال له : من أمرك بالدعاء باسمي على المنبر أقبل لك أنى سلطان ؟ فقال : نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر الغيظ وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك متألما من الضرب ، وركب حمارا وذهب إلى داره وهو يقول في طريقه بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ ، ثم أن على بك أرسل إليه في ثانی يوم دراهم وكسوة واستسمحه(١) .

وقد استطاع على بك الكبير خلال حكمه لمصر أن يخرج البلاد من الدائرة الضيقة التي فرضتها عليه المنازعات وحكم الحكام فبدأ يهتم بأقرار الأمن في البلاد وتنظيم الإدارة، كما أخذ يتطلع إلى ما وراء حدود مصر فتحالف مع ظاهر العمر حاكم عكا ، كما عقد اتصالات سياسية مع روسيا واتصل بقائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط وطلب منه امداده بالذخائر الحربية والأسلحة . فاستجاب القائد الروسي لطلبه بغية إنهاك الدولة العثمانية في حروب داخلية ، واضعاف قدرتها العسكرية ضد روسيا(٢) ، وعلى الرغم من ازدياد نفوذ على بك ، وافتتاته على حقوق العثمانيين فان انشغال السلطان العثماني بأمر الدولة الخارجية قد أضعف جهوده الرامية إلى التخلص من على بك (٣) ، ونتيجة لذلك بدأ على بك الكبير يتطلع إلى ما وراء حدود مصر .

ونتيجة لاختلال أحوال الحجاز في تلك الفترة تحول انتباه على بك نحو بلاد العرب حتى تتمكن مصر من السيطرة على تجارة البحر الأحمر وشواطئ الهند(٤) ، وليجعل من ميناء جدة مقرا لهذه التجارة ، هذا بالإضافة إلى إحرازه للمجد والشهرة بالاستيلاء على الحجاز أرض الحرمين الشريفين(٥) .

وقد استطاع على بك الكبير الاستيلاء على بلاد الحجاز بعد أن أرسل قواته بقيادة

١- الجبرتي : المصدر السابق ج-٢ ، تحت عنوان 'حوادث عام ثلاث وثمانين ومائة وألف' .

٢- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٥٩ .

٣- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص ٦٤ .

٤- Irwin, Eyles : Series of Adventures in the course of Avoyage up the Red Sea Dublin 1780 vol 1 p. 159 .

٥- شكري : المرجع السابق ص ٢١-٢٢ .

محمد بك أبو الذهب^(١) إلى مكة ، وتمكن من الاستيلاء عليها فى عام ١٧٦٩ . وفى أعقاب ذلك منح شريف مكة على بك الكبير لقب سلطان مصر وخاقان البحرين^(٢) فزاد ذلك من شهرته ، وقوة شوكته . وقد شجعت هذه الانتصارات على بك الكبير على المضى فى مشروعاته التوسعية ، فرأى ضرورة إخضاع بلاد الشام لسلطته ، وقد شجعه على ذلك ما يلي :

- ١ - اضطراب الأحوال فى سورية وثورة حليفه ظاهر العمر .
- ٢ - انشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع روسيا ، وعدم تمكنها من إرسال النجيدات العاجلة إلى بلاد الشام .
- ٣ - علاقات على بك بالقيصرة كاترين الثانية قيصرة روسيا واستعدادها لمعاونته ضد السلطان العثماني ، وظهور الأسطول الروسى فى البحر المتوسط .
- ٤ - تآمر أهل الشام من العثمانيين نتيجة لفساد الحكم والتفريق بين الأجناس المختلفة .

ونتيجة لذلك أمر على بك الكبير قائده محمد بك أبو الذهب بالزحف على بلاد الشام.

وقد أحرز الجيش المملوكى عدة انتصارات متوالية ، فدخل أبو الذهب غزة فى مارس ١٧٧١ ثم استولى على الرملة وحاصر نابلس ثم تقدم صوب بيت المقدس حتى سلمت له ووصل إلى يافا وعكا حيث قوبل بكل حفاوة ، وبدت بلاد الشام كلها تحت رحمته ، وخلال ذلك لقي أبو الذهب كل معونة وتعظيم من الشيخ ظاهر العمر الذى ساعده بالنصح تارة وبالامدادات تارة أخرى حتى اضطر العثمانيون إلى التهقير ، واستطاع أبو الذهب الوصول إلى دمشق^(٣) ودخلها فى السادس من يونيو ١٧٧١م ، وأتت إليه الوفود تهنئه وتزف إليه التهاني ، ولما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى القاهرة أقيمت الاحتفالات والزيينات ، غير أن هذه الفرحة لم تتم فلم يلبث أبو الذهب أن غير موثفه من سيده ، فأعلن العصيان عليه وأصدر أوامره إلى قواته بهدم خيامهم والانسحاب من دمشق ، كما نادى أهالى الشام بالأمان^(٤) وكر عائدا إلى مصر ، وسحب فى طريق

-
- ١- يرجع اطلاق اسم أبو الذهب على هذا المملوك إلى "أنه لما لبس الخلعة بالقلعة ، صار يفرق البقاشيش ذهبا ، وفى حال ركوبه ومروره جعل ينثر الذهب على الفقراء" . الجبرتى: المصدر السابق ج١ ص ٤٢٢ .
 - ٢- إبراهيم الطيب : مصباح السارى ونزهة القارى ص ٢٣ .
 - ٣- شكرى : المرجع السابق ص ٢٤ .
 - ٤- الجبرتى : المصدر السابق ج١ ص ٣٨٥ .

عودته جميع الحاميات التي كان قد أقامها في البلاد التي فتحها(١) . ويختلف المؤرخون في أسباب ذلك وفيما يلي نعرض لآرائهم :

١ - اجتماع القائد العثماني عثمان باشا بأبي الذهب في خيمته واقناعه بأن ما قام به ضد السلطان العثماني يخالف الشرف والأمانة ، كما أن استيلاءه على دمشق عنوة يخالف الدين وخصوصا أن دمشق من أهم مراكز الحج الرئيسية إلى الحرمين ولا يصح انتهاكها .

٢ - إرسال عثمان باشا صرة ثقيلة من الدنانير إلى محمد أبى الذهب حتى يترك دمشق ويعود إلى مصر(٢) .

٣ - أن أبا الذهب حصل على وعد من السلطان العثماني بالعفو عنه ، وتوليته شيخاة البلد بدلا من على بك الكبير(٣) .

٤ - أن أبا الذهب كان يخشى من غضب الدولة العثمانية بعد أن تفرغ من حروبها مع روسيا فتقوم بالانتقام منه ومن قواته في بلاد الشام .

٥ - أن العثمانيين نجحوا في إثارة النزعة الدينية عند أبى الذهب ، وأوهموه بأن من يعصى السلطان كأنه يعصى الله ورسوله ، كما أثبتوا له أن اتصال على بك الكبير بالروس أعداء الإسلام وانسياقه وراء أفكار كاترين امبراطورة روسيا كل ذلك يعد خيانة للإسلام والمسلمين .

ولما وصلت أنباء انقلاب أبى الذهب على سيده إلى القاهرة لم يكن هناك متسع من الوقت لتجهيز الجيوش لملاقاته ، ومع ذلك فقد أرسل على بك جيشا لمقاتلته بقيادة إسماعيل بك غير أن هذا الجيش انضم إلى أبى الذهب ، وعندئذ لم يجد على بك مناصا من الانسحاب والالتجاء إلى حليفة ظاهر العمر في عكا ، ومشاركته في مواجهة العثمانيين في بلاد الشام .

وفي بلاد الشام أعد على بك العدة للعودة إلى مصر ، فجمع حوالى خمسة آلاف جندي تقدم بهم لملاقة أبى الذهب الذى أرسل جيشا لملاقاته يصل تعداده إلى حوالى اثني عشر ألفا(٤) . وفي الصالحية دارت المعركة الفاصلة وانتصر أتباع على بك في بداية الأمر ، وانفتح الطريق أمامهم إلى القاهرة ، ولكن أبا الذهب لم يلبث أن أثار الحماس في أتباعه متهما على بك بالكفر والاحاد ، كما رماه بالتحالف مع الكفار لاختضاع البلاد حتى

١- محمد رفعت رمان : المرجع السابق ص١٦٩ .

٢- شكرى : المرجع السابق ص٢٧ .

٣- تاريخ جوبت ج١ ص٣٤٦-٣٤٧ .

٤- شكرى : المرجع السابق ص٢٨-٢٩ .

يتصي على الدين الإسلامي ويرغم الأهلى على اعتناق المسيحية ، ونتيجة لذلك ازداد حماس أتباع أبى الذهب وتمكنوا من إحراز 'نصر على توات عنى بث الذى ظل يقاتل حتى أصيب بجرح فى وجهه وسقط من على جواده وأخذ أسيرا ، وبقي فى الأسر سبعة أيام حتى مات فى الخامس عشر من صفر ١١٨٧هـ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣م ، وقد شكك الجبرتى فى طريقة موته ، فقال: "فأقام سبعة أيام ومات والله أعلم بكيفية موته(١)".

وبوفاة على بك الكبير أسدل الستار على أكبر محاولة عرفتها مصر للتخلص من السيادة العثمانية وإعلان استقلالها واستأثر محمد أبو الذهب بالنفوذ والسلطة بمساندة العثمانيين ، ومعاضدة الباب العالى له حيث "راسل الدولة العثمانية وأظهر لهم الطاعة(٢)" واعترف بسيادتهم على مصر ، ولكن حكمه لم يستمر طويلا حيث وافته المنية فى الثامن من يونيو ١٧٧٥م أثناء محاربته لقوات ظاهر العمر فغير ذلك موازين الأمور داخل مصر .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول وفاة أبى الذهب فمنهم من ذهب إلى أنه مات بداء السكنة القلبية ، ومنهم من قال إنه مات بمرض الحمى ، ومنهم من ذكر انه أصيب بمرض خبيث توفى على أثره نتيجة لأنه هدم ديرا للرهان وقتل من فيه(٣) . وعلى كل حال فبعد وفاة أبى الذهب وقعت البلاد فى حالة من الفوضى فقد شرع كبار أمراء المماليك فى التنازع على السلطة وانقسموا إلى شيع وطوائف ، ولم تهدأ لهم ثائرة حتى تمكن مراد بك وإبراهيم بك من الاستئثار بالحكم واقتسام مشيخة البلد وإمارة الحج فيما بينهما ، وفى عهدهما ازدادت أحوال مصر سوءا فقد شاعت فيها الفوضى وانعدم الأمن ، وانفلت زمام الأمور من يد العثمانيين(٤) . ولما خرجت الأمور عن حدودها وتدهورت الأحوال لدرجة أن أصبح الأجانب فى مصر رهينة تصرفات مراد بك وإبراهيم بك وأخذ فى ابتزاز قناصل الدول الأوروبية وتهديدهم بتخريب كنائس الاسكندرية إذا لم يدفعوا لهما الأموال التى يطلبانها ، تقدمت الدول الأوروبية بشكواها إلى الباب العالى فى عام ١٧٨٦ ، فأرسلت الدولة العثمانية أسطولا بقيادة حسن قبطان باشا فتمكن من السيطرة على زمام الأمور(٥) ، والدخول إلى القاهرة فى أغسطس ١٧٨٦م والحد من سيطرة هذين المملوكين إلى درجة كبيرة ، وظل الحال على هذه المنوال حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر فى يوليو من عام ١٧٩٨م .

١- الجبرتى : المرجع السابق ج١ ص ٣٨٥ . وانظر أيضا فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٣٠ .

٢- الجبرتى : المصدر السابق ج١ ص ٤٢٣ .

٣- تاريخ الأمير حيدر : نزهة الزمان فى تاريخ جبل لبنان ، القاهرة ، مطبعة السلام ١٩٠٠م ص ٨٢٤ .

٤- Charles Roux : L' Angleterre de Suez, et l' Egypte PP. 20-21 .

٥- IBid : P. 195 .

ثانيا : الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية في بلاد الشام :

قسمت بلاد الشام بعد سقوطها في يد العثمانيين في أعقاب موقعة مرج دابق ١٥١٦م إلى ثلاث إيالات هي :

١ - حلب وتشمل بلاد الشام الشمالية .

٢ - طرابلس وتشمل وسط الشام .

٣ - دمشق وتشمل معظم البلاد الجنوبية وفلسطين .

واستمر هذا التقسيم سائدا حتى عام ١٦٦٠م إذ استحدثت إيالة جديدة وهي صيدا لتشمل مدن الساحل وضواحيها وبلاد صغد حتى تتمكن الدولة من تقوية قبضتها على هذه المناطق^(١) وفيما يلي نعرض لأهم الحركات الانفصالية في هذه المناطق :

١ - حركة ظاهر العمر الزيداني :

بعد أن اختار أهل طبرية وصفد ظاهر العمر حاكما عليهم في عام ١٧٣٣م ، أخذ في تنظيم أموره استعدادا للانفصال عن الدولة العثمانية . وقد استطاع ظاهر العمر أن يضم في فترة قصيرة صيدا ويافا وحيفا ونابلس والرملة إلى حكمه ، ولما حاول باشوات الشام الوقوف في وجهه أخفقوا في مسعاهم فأدى ذلك إلى ازدياد نفوذه^(٢) ورغبته في التوسع . وخلال ذلك تمكن ظاهر العمر من الحصول على فرمان من السلطان العثماني بحكمه لصيدا ، كما تمكن من الاستيلاء على عكا وبنى بها قلعة وسكن فيها وصارت له شهرة ذائعة وأخذت قوته في التزايد وبخاصة بعد تحالفه مع علي بك الكبير في مصر . ونتيجة لانشغال الدولة العثمانية في حروبها مع روسيا استأثر ظاهر العمر بحكم عكا في الفترة ما بين ١٧٥٠-١٧٧٦م ولم تجرؤ الدولة على مناصبته العداء ، بل اضطرت إلى التساهل معه وأدى ذلك إلى تراخي نفوذه وتقوية مركزه ، فأخذ يبني القلاع حول عكا ، ويقوى من استحكاماتها ، ويتخذ الوسائل الكفيلة التي تدعم نفوذه في هذه المنطقة^(٣) .

١- رأفت الشيخ : في تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار الثقافة ١٩٧٧م ص ١٣٥ .

٢- من أبرز الأمثلة على ذلك حملة سليمان باشا والي دمشق إلى طبرية في عام ١٧٣٣ .

انظر ميخائيل الدمشقي الخوري : تاريخ الشام ١٧٢٠-١٧٨٢ تحقيق أحمد غسان سباتو ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٨٢ ص ٢٤ .

٣- فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٢١ .

ونتيجة لتحالف ظاهر العمر مع على بك الكبير فى مصر ، أبدى كل منهما استعدادة لنجدة الآخر فى حالة محاولة الدولة العثمانية الغدر بهما ، وقد أبدى على بك استعداد نجدة ظاهر العمر ومساعدته ضد عثمان باشا والى الشام ، وأرسل إليه جيشاً من أربعة آلاف جندى لمعاونته .

وعندما أرسل على بك جيشاً بقيادة محمد بك أبى الذهب إلى الشام لمحاربة الدولة العثمانية أزره ظاهر العمر حتى تم له النصر ، ودخول دمشق إلا أن خيانة أبى الذهب لسيدته قلبت الأمور رأساً على عقب وجعلت على بك يفر إلى فلسطين للاستجداد بالشيوخ ظاهر العمر فى محاولة لاستعادة مركزه فى مصر ، وعلى الرغم من تقديم ظاهر العمر المساعدات لنجدته فقد اندحرت قواته للمرة الثانية على أيدي أبى الذهب ، فأخذت العواصف تهب بشدة على حليفه ، وانتهى الأمر بالتدخل العثمانى المسلح والقضاء على ظاهر العمر فى عام ١٧٧٥م ، وقتل معظم أبنائه وعودة النفوذ العثمانى إلى هذه المنطقة، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً فقد أدى انعدام السيطرة العثمانية على تلك المنطقة إلى ظهور أحمد باشا الجزائر بحركة انفصالية أخرى فى محاولة لملء الفراغ السياسى فى تلك المنطقة فى الفترة ما بين ١٧٧٦-١٨٠٤م .

٢ - حوكة أحمد باشا الجزائر (١) ١٧٥٠-١٨٠٤م :

بدأ نجم أحمد باشا الجزائر فى الظهور بعدما التحق بخدمة على بك الكبير فى مصر . إلا أنه ما لبث أن فكر فى الهرب من مصر خشية بطش سيده ، فتنكر فى زى المغاربة ، وتوجه إلى دمشق حيث عمل فى خدمة واليها فترة ، ثم اتجه إلى لبنان واتصل بالأمرير يوسف الشهابى الذى أعجب بذكائه وقوة عزيمته وطموحه فأسند إليه ولاية بيروت التى كانت مهددة فى ذلك الوقت من قبل الأسطول الروسى (٢) ، وقد تمكن الجزائر من السيطرة على زمام الموقف فى بيروت لفترة ، إلا أن الأسطول الروسى سرعان ما

١- اسمه الحقيقى أحمد البرسناقى ، وأطلق عليه لقب الجزائر لشدة وصرامته وإسرافه فى القتل وسفك الدماء من أجل الوصول إلى الحكم والسيطرة والولاية .

للتفاصيل انظر الأمرير أحمد حيدر الشهابى: لبنان فى عهد الشهابيين - تحقيق أسد رستم وفؤاد البستاني ، القسم الأول ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣ ص ٩٦ .

٢- محمد جميل بيهم : الحلقة المفقودة فى تاريخ العرب ، القاهرة ، مطبعة البابى الحلبي ، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م ص ٥٦ .

هزم قواته هناك مما اضطره للرحيل إلى استنبول ، وهناك استطاع أن يظفر بلقبى الوزارة والباشوية ، وبمنصب ولاية صيدا وأن يبدأ مرحلة جديدة فى حياته كوال تابع للدولة العثمانية مباشرة . وبعد أن برزت قدرة الجزائر فى السيطرة على زمام الموقف ، والقضاء على بقية الزيدانيين من أتباع ظاهر العمر ، منحتة الدولة العثمانية عكا بالإضافة إلى صيدا ، فقام بتحسينها ، كما عمل على زيادة ممالিকে وأنصاره . وخلال ذلك سعى الجوار للقضاء على أسرتى آل العظم والشهابيين(١) ، كما بلغ نفوذه شأوا عظيما لدرجة أن أصبح بمثابة الحاكم الفعلى لبلاد الشام .

وبعد أن سمع الجزائر بتحريك قوات الحملة الفرنسية من مصر استعدادا للهجوم على الشام ، بدأ فى زيادة استحكاماته فى عكا ، وتجهيز مدافعه تحت إشراف عدد من الخبراء الأوربيين ، كما أوجد فيها حاميات عديدة تستمد مساعدتها بحرا من الأسطول الانجليزى بقيادة "سيدنى سميث" مما جعل عكا صعبة المنال أمام بونابرت وقواته وجعل رجالات الدولة العثمانية ينظرون إلى الجزائر على أنه مطمح آمالهم فى النصر . ونتيجة لاستبسال الجزائر وقواته فى الدفاع عن عكا ، وتفشى مرض الطاعون بين القوات الفرنسية اضطر نابليون إلى الانسحاب من أمام أسوار عكا والعودة إلى مصر مما زاد من هيبة الجزائر وعزز من مكانته أمام الناس ، وجعله يظهر بمظهر الحاكم المطلق فى بلاد الشام ، ولما خشيت الدولة العثمانية من ازدياد نفوذه أخذت تدبر له المكائد للقضاء عليه فتحالفنت مع الأمير بشير الشهابى ضده ولكن الجزائر فوت هذه الفرصة على أعدائه ، وحاول أن تظل علاقاته وطيدة مع العثمانيين وكان مستعدا لإعلان لائه للسلطان ، وظلت الأمور على حالها حتى تولى الجزائر فى ١٢١٩هـ/ أبريل ١٨٠٤م وهو فى ذروة قوته وسلطانه .

١- للتفاصيل انظر الشهابى : المصدر السابق ص ١٦٠-١٦٥ .